تفريغ

تفسير آيات من سورة التوبة

للشيخ المجاهد

أبي مالك أنس النشوان التميمي

- تقبله الله-




بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمدٍ عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا يا ربنا هدىً وتقىً وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

أحبابي الكرام، في مُستهل هذا الدرس أعتذر وأستبيحكم عذرًا حيث أنه كان من المقرر أن أشرع معكم في بداية هذه الدورة، ولكن علم الله سبحانه وتعالى أنه حال بيني وبين ذلك مفاوز لا يعلمها إلا الله، وإني أرجو الله عز وجل أن يرحم عبده الفقير وعبده الضعيف وأن يتجاوز عنه، وبإذن الله عز وجل سنعيش وإياكم مع كتاب الله، مع ذلك الكتاب الذي جعله الله سبحانه وتعالى مُعجزةً لنبيه عليه الصلاة والسلام..

يقول أهل العلم: وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أجرى الله سبحانه وتعالى على يديه مُعجزات برهانًا على صدق نبوته.

وقد أجرى الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ معجزةً خالدةً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تحدى الله سبحانه وتعالى بهذه المعجزة كل الخلائق، حتى الجن، فإن الله سبحانه وتعالى تحدى بكتابه الجن والإنس مُجتمعين.. ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فَعَلِمَ النبي ﷺ، وربّى صحابته الكرام على أن الفلاح والنجاح والصلاح في لزوم كتاب الله: ((تركتُ فيكم ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبدا، كتاب الله وسُنّتي)).

إن إقبال المؤمنين على كتاب الله عز وجل دليل فلاحهم، ودليل صلاحهم، ودليل توفيقهم، وإنه يجدر بطالب العلم أن يُقبل على كتاب ربّه حفظًا وفهمًا وتفسيرا، وهذا ما كان عليه صحابة رسول الله رضي الله عنهم حيث أنهم كانوا يعيشون مع كتاب الله عز وجل، ما يحفظوا منه قدرًا إلا أقبلوا على فهم ما حفظوه والعمل بما حفظوه.

إن هذا الكتاب وصفه الله عز وجل بأنه هداية للمتقين، ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، هذا الكتاب يقول ابن القيم –رحمه الله تعالى– في أحوال من هجره بأن البعض يظن بأن هجر كتاب الله هو فقط هجر التلاوة، وهذا بلا شك صورة من صور الهجر وليست هي كل معنى الهجر.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، إن من صور هجره: هجر التحاكم إليه وهجر تدبره وهجر التداوي به وهجر تلاوته [وهجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه].

صورٌ خمس ذكرها ابن القيم –رحمه الله تعالى–، فإن من بعض الناس يظن أنه لم يهجر القرآن وهو قد يكون يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، ولكنه لم يقف في يوم من الأيام مع آية من آياته ليتدبرها، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ لماذا؟ ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

إن التدبر من المقاصد التي أُنزِل من أجلها هذا الكتاب، فحريٌّ بطالب العلم أن يُقبِل على كتاب الله عز وجل، وما زال العلماء يُوصون طلبة العلم بحفظ كتاب الله عز وجل ابتداءً، بل إن البعض لم يكُن يقبل في حلقته من لا يحفظ كتاب الله، وما زالت هذه الجادّة هي الجادّة التي يسير عليها طلبة العلم الراسخين الذين ساروا على هدي المتقدمين في الطلب.

أما أن يكون الإنسان مُتلبِّسًا بلباس العلم وأهله، ثم بعد ذلك لا يحفظ شيئًا من كتاب الله عز وجل! لا شك أن هذا لا يليق بطالب العلم.

بل إنه من المعلوم أن ما من آية من آيات كتاب الله عز وجل –وقد أشار إلى ذلك جمع من علماء الأصول– إلا وقد تَرِدُ فيها حُكمًا من الأحكام أو حِكْمَةً من الحِكَم التي لا يستغني عنها طالب العلم، بل إن علماء الأصول حينما تحدثوا عن آيات الأحكام اختلفوا في عددها، والذي عليه الأكثر أنها خمسمائة آية، وبعضهم قال أن القرآن كله من أوله من الفاتحة إلى الناس ما من آية فيه إلا ويُستقى منها حكم من الأحكام.

ولكن قد يتعذر على البعض الإبحار في بعض المعاني، والوقوف عند دقائق المعاني والألفاظ، فيتعذّر عليه الاستنباط، وإن من أهل العلم من آتاه الله هذه المَلَكَة فتجد أنه إذا تحدث عن الآية أطال الحديث عنها.

لا أريد حقيقةً أن أُطيل في المقدمة، ولكن علينا معاشر الأحبة أن نُقبِلَ على كتاب الله عز وجل، وأن نجعل لنا معه نصيبًا وَوِرْدًا من الليل نقوم به بين يدي الله عز وجل.

شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– كان له وِرد من الأذكار والطاعات، كان لا يقبلُ أن يتنازل عنها، فكان يقول –رحمه الله–: هذه غدوتي، لو تركتها لَخَارَت قُواي.

فلا ينبغي أن يُرى طالب العلم زاهدًا في الطاعات، زاهدًا في القُرُبات، بل إن من المفترض أن يكون طالب العلم من أكثر الناس تقربًا إلى الله عز وجل؛ لعلمه بمواضع الثواب فيُبادر إليها، ولعلمه بمواضع السخط والعقاب فيكون أكثر اجتنابًا عنها.

أسأل الله العلي القدير أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى..

يقول الله عزوجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾. [التوبة: ١٦] (١)

إن هذا الخطاب خطاب لأهل الإيمان، مفادهُ: أحسبتم يا أهل الإيمان أن تُتركوا بدون امتحانٍ واختبار يُعلَمُ فيه الصادق من الكاذب، ويُعلَمُ في الخُلَّصُ من المؤمنين ممن قَصُرَ إيمانهم عن رتبة الكمال..؟

ولذلك شاهد من كتاب الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، انظروا كيف جعل الله سبحانه وتعالى الجهاد معيارًا لامتحان الخُلَّصِ من الناس؛ لأن الجهاد من الطاعات التي لا ينبري إليها إلا أهل الإيمان، لذلك وصف الله سبحانه وتعالى أهل الدنيا بأنهم دائمًا حينما يُدعون إلى هذه الطاعة يتراجعون: ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦].

١- بدأ الشيخ –تقبله الله– في شرحه للآيات من حيث وقف الشيخ (أبو الوليد) في شرحه.

أما أن يُمتحن المرء بطاعةٍ من الطاعات لا شك أن هذا امتحان عظيم، ولكن أعلى درجات الامتحان أن يُمتحن المرء في أغلى شيء يملكه في هذه الدنيا ألا وهي نفسه التي بين جنبيه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]، أي: بذلوا وسعهم، واستفرغوا طاقتهم في جهاد عدوّهم إعلاءً لكلمةِ ربّهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.. ما معنى وليجة؟

- أخ: دخيلًا.

- الشيخ: دخيلاً نعم.. هاه..؟

- أخ آخر: مدخلًا.

- الشيخ: مدخلًا.. هاه..؟

- أخ آخر: بطانة.

- الشيخ: بطانة.. ممتاز.. هاه..؟

- أخ آخر: ولاج (إدخال)، إدخال شيء ليس منه..

- الشيخ: أحسنت.. نعم يا شيخ..؟

- أخ آخر: مُعينًا.

- الشيخ: مُعينًا.. ممتاز.. ما شاء الله مذاكرين..

نعم..

قال أهل العلم: "وليجة" أي: بطانة. وبيان ذلك: أن أهل اللغة يُطلقون هذا اللفظ على كل شيء أُدخِلَ في ما ليس منه، فلو أن رجلًا دخل في قوم ليس منهم فهو: وليجة. قاله الفرّار وغيره من علماء اللغة.

من يُبيّن لنا المعنى هنا؟ نحن علمنا أن "وليجة" هو دخول الشيء في ما ليس منه.

سَمْ يا شيخ..

– الأخ: يُخرج من دخل من المؤمنين ويزعم الإيمان إذا كان قلبه مُخالفًا لظاهره.

– الشيخ: طيب .. هاه..؟

– أخ: كان في قلبه ولاء لغير الله ورسوله والمؤمنين.

– الشيخ: طيب.. هاه يا معشر المفسّرين.. ما شاء الله.. أين ابن كثير؟ وابن جرير الطبري؟ هاه..؟ أين الفطاحلة؟

– أخ: أنا أعتقد أو أظن.. يعني لا نقول أنا أعتقد أو أظن... اجتهادات.. يقول الإنسان عن علم..

– الشيخ: الله المستعان.. يا شيخ المقصد من هذه الأسئلة أولًا: فتح مجالٍ للفهم وملَكَة الاستنباط، وليس المراد أن نتجرّأ على تفسير كتاب الله عز وجل بما لا نعلم ولا نفقه، لكن هذه الأسئلة بالممارسة والدُّربة نجد أنها تُنمّي مدارك المرء، وكذلك لا تُنسيه المعلومة، وأسلوب السؤال والجواب أسلوب شرعي، وهو من الأساليب التي اتخذها إمام المعلمين وقدوة الناس أجمعين ﷺ، فهو أسلوب تربوي نبوي.

ها كأن في نفسك شيء تريد أن تقوله..

– الأخ: أقول إذا المؤمن ترك الجهاد سوف يكون وليجة على الذين يُجاهدون.. يعني يكون دخيلًا عليهم..

- الشيخ: ووجه ذلك؟

- الأخ: وجه ذلك ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، إذا تركتم الجهاد فأصبحتم وليجة عند المجاهدين..

- الشيخ: جيّد.. هاه..؟ بدأ الإخوة ما شاء الله..

- أخ: شيخ..

- الشيخ: سَمْ يا شيخ..

- الأخ: حديث الرسول ﷺ: ((ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا أذلهم الله)) يدخل فيها لا شك أن الذي يترك الجهاد سيضطر للاستنجاد بالكفار، يعني شفنا الجيش الحر وهذولا..

- الشيخ: جيد.. معنى جيد..

- أخ: الميل للكفار..

- الشيخ: جيّد.. هاه..؟ جيّد.. سَمْ يا شيخ..

- أخ: أن الله سبحانه وتعالى لا محالة سيختبر المؤمنين، ليعلم منهم هل يجاهدون أم يقعدوا عن الجهاد، وهنا جاءت الآية على صيغة الاستفهام من الله سبحانه وتعالى، استفهام على سبيل الإنكار، أن الله لا محالة مُختبركم ليعلم هل توالون المؤمنين وتجاهدون في سبيل الله، أم تحيدون وتميلون إلى غيرهم.. والله أعلم.

- أخ آخر: الجهاد يترتب عليه العداوة بينك وبين الناس..

- الشيخ: الناس مُطلقًا؟

- الكفار، المشركين..

– الشيخ: وأهل النفاق و... إلخ

– الأخ: فإن لم تُجاهدهم فستتخذهم أولياء.. يعني بمعنى الولاء والبراء يعني..

– الشيخ: هو لا شك كما مر معنا أن من أهل العلم من فسّر الوليجة بالبطانة، ومتى يتخذ أهل الإيمان بطانة ليست منهم؟ متى؟ في حال الضعف.. حينما يزهد الناس في هذه العبادة التي بها عِزُّ الأمّة قد يتخذون بطانةً لعدم وجود الكفاءة، ولعدم وجود من يُمتَحَن ويُختبر بهذا الجهاد، فيُعلم الصادق من الكاذب بين صفوف المؤمنين.. لو أنهم قاموا بالجهاد طهّر الله سبحانه وتعالى صفوفهم بتميّز أهل الجهاد عن غيرهم..

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة من غيرهم، فيُدخلوا فيهم ما ليس منهم.

انظروا:

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾..

يقول أهل العلم: إن نصف المعنى –يعني نصف معنى الآية– في خاتمتها.

تجد أن هناك معاني غزيرة فيما يختم الله سبحانه وتعالى به الآية، انظر صدّرها الله سبحانه وتعالى بامتحان، وقد يُظهِر المرء ما لا يُبطن، ولكن إن غرَّ الناس بذلك، فإنَّ الله خبير بما تعملون.. ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩]، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وهي وإن كانت عبادة عظيمة، فقد ينبري إليها من لا يُخلص فيها، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ما هو الباعث من هذا العمل؟ النبي ﷺ سُئِل عن الرجل يُقاتِلُ حميّة، يُقاتِلُ عصبيّة.. مع أن الفعل في ظاهره واحد.. قتال ودفع عدو..

قصة قزمان التي ذكرها أهل السير تعرفونها؟ ما أبلى أحد مثل بلاء قزمان! شهادة تواطأ عليها الصحابة بالمعركة.. فماذا قال النبي ﷺ ؟

– الإخوة: (أما إنه من أهل النار).

– الشيخ: مع أن النبي ﷺ ماذا قال؟ ((أنتم شهداء الله في أرضه))، ولكن هناك علم السرائر الذي تفرّد به علّام الغيوب، لا يمكن لأحد أن يتجرّأ على هذا العلم الذي اختص الله به..

علم السرائر علم اختص الله به لا يُنازعه فيه أحد، لا ملك مُقرّب، ولا نبي مُرسل، إلا ما أوحاه الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام.

ثم يقول الله عزوجل: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾. [التوبة: ١٧]

إن عِمَارة المساجد كما قرّر أهل العلم لا تخلو: إما أن تكون عمارة حِسيّة بتشييد البُنيان وترميم ما انهدم منها، وهذا هو معنى العمارة الحسية.

أو عمارة معنويّة.. ما معنى معنوية؟

– أخ: بالصلاة فيها..

– أخ: بتوحيد الله..

– الشيخ: بالصلاة فيها.. هاه..؟

بإحياء العبادة فيها.. هل لذلك دليل في كتاب الله عز وجل؟

– أخ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨].

– الشيخ: جيّد.. وكذلك..؟

– أخ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور]..

- الشيخ: نعم.. ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾..

سَمْ يا شيخ..

- أخ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

- الشيخ: جيّد.. جيّد..

كل هذه دلائل..؟

طيب، هل يُقال أن السياق يدل على أحد المعنيين؟ يعني حينما انتهت هذه الآية، جاءت الآية التي تليها وصُدّرت بأداة الحصر: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾..؟

- الإخوة: معنويًا.

- الشيخ: طيب لماذا ما تحمل على الحسية..؟

هاه؟ نفس الشيء.. يُعمَر.. العمارة واحدة في الآيتين.. هاه..؟

سَمْ..

- أخ: لأنه قد يعمر مساجد الله الطواغيت أو المشركين أو أو.. كمسجد الضرار مثلًا أو..

- الشيخ: أحسنت..

- أخ آخر: شيخ، المعنيين الحسي والمعنوي ولكن المعنوي مُفضّل ومُقدّم، تأتي الآية التي بعدها.. ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة: ١٩]..

- الشيخ: طيب.. ممتاز..

هنا الآن حينما قال الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، هل هذا يعني ممتنع الوقوع؟ لكن هل هو ممتنع الوقوع؟ يقع أم لا يقع..؟

– أخ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ..﴾ لم يقل إنما يعمر المساجد.. مساجد تحتمل المعنيين، مساجد الله لا يعمرها –سواءً الحسي أو المعنوي– إلا المؤمنون..

– الشيخ: جيّد، أنا لا أخالفك في هذا المعنى..

– أخ: الدلالة: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ يعني حينما المشرك يعمر مساجد الله، فيكون هالعمل بالنسبة له إنه هذا عمل بالمال يعني.. ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ فدليل عمل خير وحبط..

– الشيخ: جيد.. طيب لا نريد أن نُطيل..

هنا الآن السؤال..

سَمْ يا شيخ..

– أخ: لما أُسِر العباس عم النبي ﷺ في بدر، قال هذا الكلام، قال: لئن سبقتمونا إلى الإيمان، فإننا كنا نعمر مساجد الله ونقوم بسقاية الحجيج..

– الشيخ: نعم ذكره الواحدي –رحمه الله– في أسباب النزول هذا السبب، ولكن لم أقِف حقيقة أو لم أُحقّق إسناده، ولكن ذكر أن الصحابة رضي الله عنهم حينما أسروا العباس يوم بدر، قام علي رضي الله عنه فعنّتَ العباس بالخطاب، ثم ردَّ عليه العباس رضي الله عنه قال: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا، فقال: وما محاسنكم؟ ذكر منها: عمارة المسجد الحرام وكذلك سقاية الحاج وكذلك كسوة الكعبة وما شابه ذلك..

طيّب، جيّد.. هل هنا ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ هل هذا ممتنع الوقوع؟

– إخوة: غير ممتنع.

– الشيخ: غير ممتنع الوقوع، وقع..

– أخ: المشركين ممتنع عمارة المساجد لأنهم مشركين الشرك والإيمان ما يلتقيان، عمارة المساجد بالإيمان أما الشرك...

– الشيخ: يعني هو معنى السياق يا إخوة ليس ممتنع الوقوع، ولكن لا ينبغي أن يتصدر من هذا حاله لعمارة بيوت الله عز وجل، لا يمكن أن تتحقق العمارة المعنوية، لأن عبادتهم لا تصح منهم، بل إن ماتوا عليها –لا شك حتى وإن قاموا ببعض الطاعات وماتوا على الكفر ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

طيب، هل يُتصوّر أن يقوم الكافر بعبادةٍ في وقت كفره، ثم يُسلم، هل يُتوقّع أن تصح منه عبادته التي فعلها في وقت كفره؟

– الإخوة: لا..

– الشيخ: لا تصح.. طيّب، في الصحيحين من حديث حكيم بن حزام، بعدما أسلم جاء إلى النبي ﷺ، فسأله، قال: يا رسول الله إني كنت أتحنّث، وأقوم ببعض الطاعات والعبادات، فبماذا أجابه النبي ﷺ؟

قال: ((أسلمت على ما أسلفت))، ولكن هنا لا بد أن يُضاف قيد: أنه قام بالعبادة لله وحده لا شريك له، ولم يصرفها لغير الله.

يُتصوّر؟ هل في ذلك دليل في كتاب الله؟ على أن المشركين في بعض الحالات قد يُخلصون العبادة لله..

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت: ٦٥].

ولكن من المعلوم أن من شروط صحة العمل وشروط قبول الطاعة ليس فقط الإخلاص، بل كذلك الإسلام، فلو صدرت العبادة –حتى وإن أخلص فاعلها لله– وهو قد أخلَّ بأصل التوحيد لن تُقبل.. لو أنه ارتد عنه..

والإمام الماوردي –رحمه الله– كما في [الحاوي الكبير] يحكي إجماع أهل العلم على أن عبادة المرتد وقت ردّته لا تصح منه، وإنما اختلف أهل العلم فيمن قام بالطاعة قبل الردّة ثم ارتدّ ثم أسلم.

واضحة الصورة؟

رجل مسلم حج ثم –عافانا الله وإياكم وأعاذنا الله وإياكم– ارتد، ثم أسلم، هل يُؤمر بإعادة الحج أم لا..؟

– أخ: متى فعل..؟

– الشيخ: فعل في وقت إسلامه ثم ارتد، ثم تاب (أسلم) هاه..؟

– أخ: اختلف أهل العلم بعضهم قال يستأنف، وبعضهم قال يحبط عمله..

– الشيخ: طيب ما الدليل؟

– أخ: الذين قالوا أنه يحبط عمله وما يعود قالوا: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

– أخ آخر: دليل أنه يحبط عمله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

– الشيخ: طيّب ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هذه تدل على أن مجرد وقوع الشرك معه حبوط العمل..

طيّب.. هاه..؟

– أخ: الصحابة الذين ارتدوا أقروا لهم صحبتهم بعدما رجعوا إلى الإسلام..

– الشيخ: طيب نُجمل..

سَمْ يا شيخ عشان ما نزعلك.. هاه..؟

– الأخ: إذا ارتدَ عن جهل...

– الشيخ: طيب أنت تعرف أن الجهل في مسائل الشرك الأكبر الظاهرة ليس مانعًا من الموانع.. حكى الإجماع ابن جرير الطبري وكذلك الإمام القرافي والإمام ابن القيم –رحمهم الله–..

الشاهد: لا.. وأختصر..

أهل العلم اختلفوا هل الردة مُحبطة للعمل بمُجرّدها أو بالموت عليها.. قولان لأهل العلم:

القول الأول: قالوا أن الردة مُحبِطَة بمجرد وقوعها، استدلوا لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ظاهر الآية يدل على أن حبوط العمل مُناطٌ بوقوع الشرك، فإذا وقع الشرك حبط معه العمل، هذا ظاهر الآية.

القول الآخر: قالوا: لا، حبوط العمل مُعلّقٌ بأمرين: بالردّة والموت عليها ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، عُلّقَ الحبوط بماذا؟ بأمرين: بالردّة، والموت عليها.

يقول الشافعي –رحمه الله– وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية: وما عُلّق بشرطين لم يثبت بأحدهما.

طيب.. عندنا الآن مسألة أصوليّة.. عندنا مسألة المطلق والمقيّد..

الآن ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الحبوط هنا مطلق أو غير مطلق؟

– الإخوة: مطلق..

– الشيخ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ مطلق أو مقيد؟

– أخ: مقيد..

– الشيخ: مقيد بماذا..؟

– الأخ: مقيد بالإيمان..

– الشيخ: هو لا شك ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾.. يعني يقع منه الكفر..

لكن هو على العموم الشاهد من ذلك أنه وقع الكفر.. فإذا وقع الكفر ظاهر الآية يدل على أن مجرد وقوع الكفر –سواءً كان اعتقادي أو عملي أو قولي– جاء معه الحبوط.

أُنيط الحبوط في ظاهر الآية بالكفر، هذا الآن فيه إطلاق..

طيّب، ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ هذا المناط.. حصل الارتداد بأي صورة من صور الارتداد.. ﴿فَيَمُتْ﴾ مُقيّد..

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ﴾ هذا الأول.. ﴿عَن دِينِهِ﴾.. ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآن قُيّد بماذا؟

بالموت على الردّة..

ذكر جمع من أهل العلم أن علماء الأصول في مسألة المطلق والمقيد ينظرون إلى السبب والحكم، فإذا كان السبب مختلفًا، والحكم واحد، حُمِلَ المطلق على المقيّد على رأي جمهور العماء خلافًا لأبي حنيفة، وإذا اتّحد الحكم، واتّحد السبب حُمِلَ المطلق على المقيّد اتّفاقًا.. واضحة؟

– أخ: بالمثال يتضح..

– الشيخ: طيب.. أهل العلم يقولون أن علماء الأصول ينظرون بمسألة المطلق والمقيد من جانبين: السبب والحكم، فهنا السبب في كلا الآيتين المطلقة أو المقيدة.. ما هو؟ الكفر.. الحكم ما هو؟ حبوط العمل..

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ هذا هو السبب.. الحكم ما هو؟ ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ هذا السبب.. ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ هذا الحكم.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ هذا السبب.. ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ هذا ما هو؟ هذا الحكم.

الآن نأتي إلى الآية المطلقة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ ما هو السبب؟ الكفر.. والحكم؟ حبوط العمل.

طيّب.. ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ما هو السبب؟ الشرك.. ما هو الحكم؟ حبوط العمل.

طيب نأتي للآية المقيّدة: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ ما هو السبب؟ الردّة والموت عليها.. طيب والحكم؟ -هذا الآن قيد إضافي- الحكم: حبوط العمل.

في الآيتين المطلقة والمقيدة السبب متّحد أو غير متّحد؟ متحد (الكفر كلها)..

والحكم؟ متحد.. إذن اتّحد الحكم، واتّحد السبب؛ فيُحمل المطلق على المقيّد اتفاقًا.

فهمتم؟

- الإخوة: نعم.

- الشيخ: أكيد..؟

- أخ: يقدم المقيد على المطلق صح؟

- الشيخ: أنت تحمل ما أُطلق في موضع على ما قُيد في الموضع الآخر.

إذن فنقول أن الردة لا تُحبط العمل إلا بالموت عليها.. واضح؟

نرجع إلى المثال: فمن حجَّ وقد توفر في حجه شروط قبول العمل، ثم ارتدّ، فاستُتيب، فتاب من ردّته هل يؤمر بإعادة الحج؟

– أخ: شيخ الِّي فهمته أنا أن المطلق يحمل على المقيد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، يعني إذا أكلنا مو أضعاف مضاعفة يصح؟ لأ ما يصح..

– الشيخ: لا هناك بعض القيود يا شيخ قد تكون من باب [التوبيخ أو ما شابه ذلك].. طيب، ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ"﴾ [التوبة: ٨٠]، في بعض الأحيان يكون العدد غير مُراد أصلًا وإنما هذا من باب ماذا؟ مثلًا التوبيخ أو ما شابه ذلك..

﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾: هذه زيادة في الإثم، ومن قال بذلك فهو قول يعني ضعيف جدًا، وإن كان هناك من المعاصرين من أثار مثل هذه المسألة فحصر حُرمة الأكل في قضية الأكل المضاعف وما شابه ذلك، لكن ظاهر النصوص يرُد ذلك من كتاب وسنة، ومن وفاق لأهل العلم.. واضح يا إخوة؟

– أخ: شيخ بالنسبة للذي يرتد يجب أن تطلق زوجته إذا تاب يعتبر الطلاق؟

– الشيخ: هذه المسألة فيها تفصيل يا شيخ.. وإن كانت خارج الموضوع.. لكن نشير إليها إشارة..

طبعًا أهل العلم اختلفوا.. **هل بمجرد الردة تبين المرأة أم لا؟**

قال الأحناف: أنه بمجرد وقوع الردة تبين المرأة مطلقًا.. يعني لو ارتد دقيقة بانت منه المرأة، لو أراد أن يرجع بعد هذه الدقيقة لزمه أن يعقد عقدًا جديدًا ومهرًا جديدًا.

طيب.. الذي عليه جمهور العلماء: أنه إذا وقعت منه الردة أصبح العقد مُعلّقًا مدة العدة ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فعدتها هذه الأقراء الثلاثة، فإن تاب المرتد في وقت العدّة رُدّت إليه زوجته بغير عقد ومهر.

– سائل: ما حسبت عدة؟

– الشيخ: لا لا ما تُحسب..[١]

[١] - الناشر: الفسخ الواقع بسبب الردة الردة لا يحسب من الطلاق عند جمهور الفقهاء.

جيّد..

جيّد.. الآن واضحة الصورة..

طيّب إذا انتهت العدة ولم يرجع؟ الذي عليه الجمهور هنا تبين.

وهناك رواية عند أحمد اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم: أنه بعد انتهاء العدة فالمرأة في حِل، إن شاءت نكحت غيره ممن شاءت من الأزواج، وإن شاءت انتظرت زوجها حتى يُسلم، فإن أسلم ولو بعد طول مُدّة رُدّ إليها بغير عقد ومهر، ودليل ذلك: فعل النبي ﷺ مع زينب حينما ردّها إلى زوجها العاص بن الربيع. والرواية التي جاءت أنه أعادها له بعقد ومهر هي رواية غير صحيحة، بل الرواية الصحيحة تدل على خلاف ذلك.

- أخ: يا شيخ بعض الصحابة.. يعني عمرو بن معد يكرب الزبيدي وأبو طلحة الأسدي روي أنهم ارتدوا ثم حسن إسلامهم، هل بقي اسمه صحابي؟

- الشيخ: أهل العلم يقولون الصحابي هو من رأى النبي ﷺ وآمن به ومات على ذلك، وأضاف بعض أهل العلم وإن تخلّل ذلك ردّة..

طيب يا إخوة لا يطول الوقت علينا..

طيب.. ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]: هنا ظاهر النص للمشركين، هل يدخل في ذلك مثلًا.. لأن المرتدين والطواغيت في هذا الزمان..

إذن هذه الآية تشمل من كان كفرهم أصلي أو طارئ.

طيّب.. الآن **هذه المساجد التي يبنيها الطواغيت في هذا الزمان ما رأيكم فيها؟**

- أخ: مساجد ضرار.

- الشيخ: كلها؟ .. ما شاء الله عليك!

- الأخ: ما ينبغي لهم أن يعمروا.. ما نافية وليست ناهية..

- الشيخ: هو يا شيخ نعم.. نحن نقول هذا غير ممتنع الوقوع.. ليس هذا المراد بالسياق.. المراد بالسياق أنه لا ينبغي ولا يُراد أن يتصدر من لا خلاق له وليس من أهل الإيمان بعمارة هذه الدور التي تُعمر بالإيمان وبطاعة الرحمن.

سَمْ يا شيخ..

- الأخ: إذا بُنيت وعُبد فيها غير الله وكانت فيها شركيات تزال، وإن كانت محتوية على بعض البدع.. وما إلى ذلك.

- الشيخ: جيّد، ما هي أوصاف مسجد الضرار؟

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ١٠٧]، لا شك أن المسجد إذا توفرت فيه هذه الأوصاف فإن حكمه حكم مسجد الضرار، فنتعامل معه بمثل ما تعامل به النبي ﷺ مع مسجد الضرار.

هناك مساجد قد يبنيها الطواغيت رياء وسُمعة وليس بقصد الإضرار.. هاه..؟

- أخ: معظم المساجد التي يبنيها الطواغيت لمحاربة أهل الإيمان والتوحيد، حتى الآن بيت الله الحرام يُحاربون أهل التوحيد من بيت الله الحرام.. بس اللي يبنيها الطواغيت..

- الشيخ: طيب من أول من بنى المسجد؟ إبراهيم عليه السلام

هاه..؟ طيب.. بناء على ذلك نمسك البلدوزر[1] ونتوكل على الله..! ما يصير..

طيب يا شيخ أنا أذكر لكم **فائدة:**

---

[٨]- بدأ الشيخ -تقبله الله- في شرحه للآيات من حيث وقف الشيخ (أبو الوليد) في شرحه.

الضرار وصف، إما أن يتحقق بالمسجد كامل وصف الإضرار، فهذا لا يُخالف أحد في هدمه، لكن قد تتوفر فيه صفة وتختل فيه أوصاف.. واضح؟

طبعًا والإضرار كذلك منه ما هو لازم ومنه ما هو طارئ..

- أخ: كيف؟

- الشيخ: هاه؟ صعبة؟ جيب السبورة نشرح :)

- أخ: يا شيخ مثلًا أمن الدولة كان مقر للإفساد وللاعتقال وللبطش وو.. هو نفسه مثلًا أمن الدولة أُزيح النظام وصار مركز للمسلمين ينتفعون به، كذلك المسجد هذا إذا أمكن إزاحة الضرر منه إيش المانع؟

- أخ آخر: مثل مسجد بني على قبر هذه من أنواع الضرار.. هذه يُزال.. أو مثلًا قبر وُضع في المسجد..

- الشيخ: طيب الآن مسجد أُسّس على التقوى، لكنه قد يوصف بأنه مسجد ضرار.. ضرار طارئ.. هذا كيف يكون؟

بالإمام.. الإمام الذي يخطب فيه، والذي يُدرّس فيه.. يدعو الناس إلى الولاء للطاغوت، ويُنابذ أهل التوحيد، ويُحرّض الناس على الجهاد وأهله.. إضرار هذا ولّا غير إضرار؟ وتفريق بين المؤمنين ولّا مو تفريق؟

لكن لو مسكنا الإمام بعدما يُمكنا الله عز وجل منه :) ثم نحتز رأسه.. جيّد.. ثم نُعلّقه على دوار النعيم مصلوبًا.. ثم انتدبنا إمامًا من الموحدين الصادقين في نفس المسجد.. زال الضرر ولّا ما زال؟

- الإخوة: زال.. زال الطارئ..

- الشيخ: فإذن لا بد أن نُراعي في وصف المسجد بين الضرر اللازم الذي من أجله أُسّس هذا المسجد، وتحققت فيه أوصاف الضرار، وبين المسجد الذي لم يُؤسّس على ذلك ولكن طرأ عليه الضرار.

سَمْ يا شيخ..

- الأخ: يعني شيخ نقول مثلا المسجد الذي أقيم لصد الناس عن دينهم، مو مثل المسجد الحرام الّي صار فيه طارئ لصد الناس عن سبيل الله..

- الشيخ: أحسنت..

الآن لو تسمعون خُطَب الجمعة في المسجد الحرام.. دعوة للطاغوت وأنه إمام المسلمين، وفتنة للناس في دينهم، يخرج هذا الطاغية (السديس) ثم بعد ذلك يُرسّخ في الناس الكفر الصُّراح، هذا إذا لم يكن هذا من أئمة الضرار فلا يوجد إمام للضرار على وجه الأرض..

وقد أحسن الوصف أحدهم حينما قال عنه أنه كبقرة بني إسرائيل.. أصبح فتنة للناس، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافينا وإياكم من سوء العاقبة..

طيّب..

﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾..

هل الكفار يقولون على أنفسهم ويصفون أنفسهم بذلك؟

- الإخوة: لا.

- الشيخ: فما معنى شاهدين على أنفسهم بالكفر؟

- أخ: بأفعالهم..

- الشيخ: أحسنت.. بأفعالهم.

أفعالهم تشهد لهم بهذا الأمر.. عبادتهم للأوثان، صرفهم العبادة لغير الله عز وجل، كل هذه التصرفات شاهدة عليهم بكفرهم. وقال بعضهم: أن النصراني حينما يُسأل فيُقال له ما دينك؟ فماذا يقول؟ يقول

عن نفسه أنه نصراني، وإذا قيل عن اليهودي، قال عن نفسه أنه: يهودي، وهذا حكم وشهادة منه على نفسه..

- الإخوة: بالكفر..

- الشيخ: وهذه صورة ذكرها بعض أهل التفسير..

﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهُمْ خَالِدُونَ﴾..

- أخ: هل يُقصد بها أيضًا الكنائس مثلًا.. الكنائس والصوامع؟

- الشيخ: يعني أنها من مسجد ضرار؟

- الأخ: لأ ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾.. وأنها ليست من مساجد الله، هم يدّعون أنها بيوت يُعبد فيها الله..

- الشيخ: نعم نعم.. لأنهم يمارسون فيها العبادات الكفرية، يجعلون الله ثالث ثلاثة وينسبون الولد إلى الله..

سَمْ ياشيخ..

- أخ: هل لهذا المعنى يعني علاقة بقوله تعالى: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾..؟

- الشيخ: أنت قصدك بمعنى العمارة؟

نحن ذكرنا أن العمارة هنا قد تتجه إلى العمارة الحسيّة والعمارة المعنوية.. نعم..

﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.. لا شك أن الحبوط هنا -كما ذكرنا ذلك- أنه بالموت عليه، وهل يُتصوّر أن المشرك أو الكافر الأصلي قد تصدر منه عبادة يُخلص فيها لله؟

قلنا نعم.. ودليل ذلك: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. [العنكبوت: ٦٥]

جيّد.. وكذلك حديث حكيم بن حزام حينما ذكر للنبي ﷺ بعض الطاعات التي كان يتحنث بها، فقال النبي ﷺ له: ((أسلمت على ما أسلفت))..

طيب نكتفي بهذا القدر.. أسأل الله العلي القدير أن يوفقنا وإياكم لما يُحب ويرضى، هذا ما تنسى ذكره وإيراده والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الدرس الثاني

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا هُدىً وتُقىً وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

أحبابي الكرام، كما جرت العادة أننا في بداية الدرس الجديد نستذكر وإياكم أبرز وأهم المسائل التي مرت علينا في الدرس السابق، فهل أنتم مستعدون لذلك؟ أم أن العلم قد نُسي..؟

مرَّ معنا معاشر الأحبة أننا ذكرنا أن العِمَارة التي تكون لبيوت الله عز وجل تكون على نوعين، ما هي؟

– أخ: عمارة مادية وعمارة معنوية، المادية هي بإكساء المساجد، المعنوية هي بالصلاة والذكر والقيام..

– الشيخ: نعم أحسنت..

طيّب.. قلنا هنا قال الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، هل هذا السياق يدل على امتناع الوقوع؟ أي أن هذا ممتنع الوقوع؟

– أخ: كثير..

– الشيخ: يعني حاصل.. ممكن أنه يقع.. وحصل..

– الأخ: كثير من المساجد...

– الشيخ: مِن زمن النبي ﷺ بُني.. ولكن ما المراد في هذا السياق؟

– الإخوة: المعنوية.

- أخ: ما ينبغي لمن كان هذا حالهم أن يعمروا مساجد الله..

- الشيخ: نعم أحسنت.. ما ينبغي لمن كان هذا وصفه وحاله أن ينبري ويتصدّر لعمارة بيوت الله عز وجل بِكِلا نوعي العمارة..

طيّب.. ذكرنا كذلك.. ما معنى قوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾؟

- أخ: ما يشهدون على أنفسهم، لكن أعمالهم تشهد عليهم..

- الشيخ: نعم.. بواقعهم وبلسان حالهم، فهم يباشرون أفعال الكفر وأقوال الكفر كذلك. وقال كذلك بعض المفسرين: أن النصراني إذا سُئل على دينه، قال: هو نصراني، وإذا سُئل اليهودي عن دينه، قال: هو يهودي، وهكذا...

وقيل كذلك: أنهم شاهدين على أنفسهم بالكفر حينما يُيَمِّمون شطر المسجد الحرام، فتجد أن من جملة تلبيتهم أنهم يقولون: لبّيك الله لبّيك، لبّيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك..

فهذه كذلك عبارة تدل على أنهم يشهدون على أنفسهم بالكفر.

نعم.. وتحدّثنا عن الحبوط.. وتحدثنا عن حبوط أعمال المرتد متى تكون، هل تكون بمجرد حصول الردة أو بالموت عليها وفصّلنا القول في ذلك، فمن يُعيد لنا التفصيل؟

- أخ: جاءت الأدلة مُطلقة ومُقيّدة، وعندما يتّحد السبب ويتّحد الحكم، فيُحمل المطلق على المقيّد.. أما الدليل في المقيّد...

- الشيخ: هل هذا محل خلاف؟ إذا اتحد الحكم والسبب؟

- الأخ: لا، هذا متفق عليه..

- الشيخ: أكيد؟

- الأخ: نعم إن شاء الله.. لا في خلاف.. في خلاف..

– الشيخ: في خلاف.. مباشرة تراجعت :) إذا اتّحد الحكم واتّحد السبب.. في خلاف..؟

– الأخ: لا.. ما في خلاف.. هههههه

– الشيخ: هاه.. إذن ذكر الآن ثلاث روايات الآن :)

مذهبك في القديم، ومذهبك في الجديد.. أعطني المذهب الذي استقرّ الأمر عليه :)

– الأخ: والله في المسألة وجهان يا شيخ..

– الشيخ: نعم.. هاه..؟ محل اتفاق أو خلاف؟

– الأخ: لا.. هذه قاعدة أصولية..

– الشيخ: الآن إذا اتحد الحكم والسبب، قلت أن المطلق يُحمل على المقيّد.. سألتك قلت: هل هذا اتفاقًا أو هناك خلاف؟

– الأخ: لا.. اتفاقًا..

– الشيخ: اتفاقًا... طيّب، دلّل على ذلك..؟

– الأخ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]..

– الشيخ: هذه الآية دليل على ماذا؟

– الأخ: دليل على الإطلاق هذه.. حبوط العمل..

– الشيخ: دليل على أن الحبوط إنما يكون بمجرد الكفر، وظاهر الآية يدل على ذلك: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ حصل الكفر، ما النتيجة؟ ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.. نعم..

– الأخ: الآية الثانية.. للآخر: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٥٤]..

- الشيخ: إي نعم.. وهذه الآية تدل على ماذا؟

قُيّد الحبوط بالموت على الكفر.. ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ الآن حصلت الردّة.. ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.. النتيجة ما هي؟ ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقلنا أن الشافعي -رحمه الله-، وكذلك شيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: وما عُلّق بقيدين.. أو بشرطين، لا يثبت بأحدهما.

فَهُنا الآن نظرنا إلى الحكم والسبب في الآية المطلقة.. ما هو؟ السبب ما هو؟ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.. هُنا الآن السبب ما هو؟

- الإخوة: الكفر.

- الشيخ: والحكم ما هو؟

حبوط العمل.

الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.. السبب ما هو؟

- الإخوة: الردة.. الردّة والموت عليها..

- الشيخ: الردّة.. الكفر.. والحكم ما هو؟

حبوط العمل.. وهُنا عُلّق حبوط العمل بقيدٍ زائد (بالموت على الردّة)، فهذا هنا قيد زائد، زاد عن تلك الآية المطلقة، فهنا اتّحد السبب والحكم، فيُحمَل المطلق على المقيّد، فيُقال أن الردّة لا تكون مُحبطةً للعمل إلا بالموت عليها..

تحدّثنا عن مسجد الضرار وقلنا أن الضرار ينقسم إلى قسمين.. هاه..؟

- أخ: طارئ، وحقيقي.

- الشيخ: طارئ وحقيقي.. هل قلت لكم حقيقي؟

- الأخ: لا ما قلت..

- الشيخ: من أين جئت بهذه؟

- الأخ: يكون أصله مسجد ضرار.. أو تكون..

- الشيخ: أصلي أو لازم نقول.. مثّل لذلك..

- الأخ: مسجد الضرار الطارئ: أن يكون مثلًا.. الإمام الذي..

- الشيخ: نعم في وصف من أوصافه.. كالإمام مثلًا..

- الأخ: في وصف من أوصافه كالإمام مثلًا الذي يدعو إلى غير الله عز وجل أو يدعو لتحكيم غير شرع الله عز وجل، فهذا مسجد ضرار طارئ، فإن زال هذا الإمام وجاء بدلًا منه إمام آخر، فيرجع المسجد..

- الشيخ: لأن قلنا أن أوصاف الضرار ما هي؟ من يذكرها لنا؟

- أخ: كفرًا وتفريقًا وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله.

- الشيخ: نعم جيّد..

إذا نظرنا إلى الآية المقابلة ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].. فنجد أن بالنظر إلى الأمثلة التي مرّت من زمن النبي ﷺ وعلى تاريخ المسلمين نجد أن مساجد الضرار لا تخلو إما أن تكون أنها: أُسّست من أول يومٍ على الصد وكذلك المحاربة لله ورسوله ولدينه سبحانه وتعالى، فهذا الضرر الآن أو هذا الضرار أصلٌ في هذا المسجد الذي بُني.. فالحكم فيه ما هو؟ الهدم والإزالة كما فعل النبي ﷺ بمسجد ضرار.

لكن هناك مساجد مثلًا -كما مرّ معنا- تُبنى للفخر والمفاخرة كما هو الحال ببعض الطواغيت، فإنهم يُنشؤون هذه البيوت، ولا تكتمل حقيقة فيها أوصاف الضرار، تجد أنها تُبنى ولا يحرصون على أن يضعوا مثلًا إمامًا ينصب العِداء للمؤمنين ويصدّ الناس عن دين رب العالمين، فهل يمكن أن يُستفاد من هذه المساجد؟ أو أنها تُهدم؟ هاه..؟

لا يُمكن أن تُعطى هذه البيوت حقيقة حُكمًا واحدًا، وإنما ننظر في كل مسجد بُني على هذه الحال على حِدَة، فإن تحققت واكتملت فيه أوصاف الضرار، تعاملنا معه كما تعامل النبي ﷺ مع مسجد ضرار، وإن قلّت هذه الأوصاف فإنها -فإن هذه المساجد- دون رتبة المسجد الذي باشر النبي ﷺ بتحريقه وهدمه.

نعم.. هل بقي هناك مسائل أخرى ذكرناها..؟

قد يعترض البعض يقول مثلًا: الآن المسجد الحرام والمسجد النبوي، من الذي الآن باشر توسعتها هذه البيوت وهذه المساجد؟ خصوصًا في وقتنا الحالي والمعاصر..

- الإخوة: الطواغيت..

- الشيخ: نعم.. نجد أن هؤلاء الطواغيت باشروا يعني توسعة هذه المساجد، ولكن هنا يُقال أن التوسعة تختلف عن أصل هذا المسجد، فإن المسجد أُسّس من أول يوم على التقوى، فإن إبراهيم عليه السلام امتثل أمر ربّه سبحانه وتعالى وباشر بناء الكعبة، ثم بعد ذلك كانت مهوى لأفئدة المؤمنين وأفئدة الخُلّص الصادقين، وقل مثل ذلك في المسجد النبوي، فإن النبي ﷺ حينما هاجر إلى المدينة باشر هو وصحابته رضي الله عنهم ببنائه، فمهما يطرأ على هذا المسجد فلا يضر بأصل ذلك المسجد.

بينما إذا نظرنا إلى بعض المساجد التي أُسّست من أول يوم للصد عن سبيل الله وأصبح الطواغيت في هذا الزمان يتفنّنون في ذلك، بل إنه من العجب العجاب أن التحالف الصليبي في أفغانستان قد بنى مئات المساجد، وما الباعث من ذلك؟ هم يريدون أن يُظهروا للناس أنهم أصحاب نية حسنة تجاه الإسلام وأهله، وأن حربهم الحقيقية إنما هي ضد الإرهاب.. فيتلاعبون في عقول الناس.

الأمثلة على ذلك كثيرة، ولكن الذي يهمنا أن مسجد الضرار له أوصاف، فإذا توفّرت في مسجدٍ واكتملت هذه الأوصاف، فإن الحكم لمثل هذا المسجد ما هو؟ الهدم والتحريق، وإن كانت دون ذلك فهي كذلك دون ذلك بمرحلة، وهكذا.. نتعامل مع هذه المساجد بحسب أوصافها وأحوالها.. نعم..

يقول الله عزوجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة:١٨]..

لا شك أن "إنما" هنا أداة حصر، ومفاد السياق: أن العمارة التي جاء الحث والترغيب فيها إنما تكون صادرة ومُنبعثة من أهل الإيمان الخُلّص الذين سيأتي وصفهم في هذا السياق.

هنا جاء السياق بالجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾.. وقُرئَت هذه الآية: ﴿إنما يعمرُ مسجدَ الله﴾.. فهل هناك فرق بين القراءتين؟

- أخ: فقط الجمع..

- الشيخ: طيب هل يترتب على هذا الاختلاف في القراءة مزيد معنى؟

- أخ: إذا قلنا المسجد فبيت الله الحرام..

- الشيخ: نعم إذا قُلنا: ﴿إنما يعمر مسجد الله﴾ فإنه ينصرف ابتداءً إلى بيت الله الحرام، ويشهد بذلك سبب النزول -كما مرّ معنا في الدرس الماضي-، ولكن إذا قلنا: ﴿مساجد الله﴾ فإنها تعُم، وهذا الذي مال إليه جمع من أهل العلم، أن الأصح من حيث المعنى أن يُقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾.

قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-: حتى وإن جاءت بلفظ الجمع، فإنها تدل على المسجد الحرام.. كيف يكون ذلك؟ المسجد واحد وكيف يُعبّر بالجمع؟ يستقيم؟ واضح السؤال؟

لأن المسجد الحرام هو قبلة لكل المساجد، فأصبحت عمارته عمارة لكل المساجد.. وهو كذلك أم لهذه المساجد، فَسَاغَ أن يُقال ويُعبّر عن هذا المسجد وإن كان واحدًا في ذاته بهذا السياق: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾.. لاعتبار أنه قبلة لكل المساجد.

إذن سيُبيّن الله سبحانه وتعالى في هذا السياق الأوصاف التي ينبغي توفرها في عُمّار هذه البيوت التي بُنيت وشُيّد بُنيانها لإقامة ذكر الله عز وجل.. ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]..

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾..

في هذا السياق يدل على أن الإيمان يُطلق ويُراد به كذلك الإسلام؛ لأن أهل العلم قرروا أن الإسلام والإيمان لفظان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، فهذا السياق يدل على أن الإيمان يدل على الإسلام والإيمان، يدل على الأعمال الظاهرة والباطنة، فإن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا دلَّ الإسلام على الأعمال الظاهرة، والإيمان على الأعمال الباطنة، (ما الإسلام؟) كما جاء في حديث جبريل حينما جاء إلى النبي ﷺ كما في حديث عمر رضي الله عنه حينما سأل النبي ﷺ ما الإسلام؟ ماذا قال؟ ((أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت))، كل هذه أعمال ظاهرة، والإيمان: ((أن تُؤمن بالله، وملائكته، وكُتبه، ورُسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيرهِ وشرّه)).. فالإيمان هنا جاء بالأعمال الباطنة، وإذا اجتمعا في سياق واحد دلَّ كل واحد منهما على كِلا المعنيين.

وهذه الآية تشهد لذلك، فمثلًا: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.. ظاهرة أو باطنة؟

- الإخوة: باطنة.

- الشيخ: وأقام الصلاة..؟

- الإخوة: ظاهرة.

- الشيخ: وآتى الزكاة..؟

- الإخوة: ظاهرة.

- الشيخ: ولم يخشَ إلا الله..؟

- الإخوة: باطنة.

- الشيخ: باطنة.

هنا يَرِدُ سؤال: العمارة.. إذا أردنا أن نتحدث عن العمارة الحسية، فإن هذه العمارة لا تخلو إما أنها تكون: عمارة مشروعة، أو عمارة غير مشروعة..

هل يُمكن أن تُعمَرَ بيوت الله عمارة غير مشروعة بالمعنى الحسّي؟

- الإخوة: نعم.

- الشيخ: كيف..؟

- أخ: بالبدع.

- الشيخ: بالبدع.. أحسنت.. وجه ذلك، أو مثال ذلك؟

- أخ: ما حصل في المسجد النبوي...

- الشيخ: مثلًا مثل الزخارف، القباب، المآذن المبالغ كذلك في رفعها، وما شابه ذلك من المظاهر التي قد لا تكون مشروعةً في أصلها، أو تكون مشروعة ولكن يُزاد على القدر المشروع، فيُتنبّهُ إلى ذلك.

فلا يستقيم أن يأتي رجل ويتجاوز القدر المشروع، ثم يستدلّ بعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾! فلا بُدّ أن يُتفطّنَ إلى مثل ذلك.

هناك مسائل قد يطول المقام إذا تطرقنا إليها، ولكن لعل الله سبحانه وتعالى يُهيء لنا سبب ذلك في الدرس القادم، أن نتحدث عن مشروعية المحاريب، وهل هي مشروعة أو غير مشروعة، وكذلك المنابر، وكذلك الزخارف، وما شابه ذلك، والقباب، لأنها حقيقة مسائل تمس واقعنا، فلا بد من التفقّه بمثل هذه المسائل ورفع الجهل عن البعض فيها.

- سائل: شيخ البناء على الأرض المغصوبة..

– الشيخ: نعم، لا شكّ أنه لا يستقيم أن تُغصب الأراضي وإن كان يرد معنا كذلك حكم الصلاة في الأرض المغصوبة، وما حصل الخلاف فيه بين جماهير العلماء والأحناف، هل تصح الصلاة أو لا..

الصحيح من أقوال أهل العلم: أن الصلاة تصح مع الإثم، بانفكاك الجهة، فالغاصب آثم بغصبه، وإذا أدى الصلاة على الوجه التام الصحيح فقام بأداء الصلاة مع إتمام شروطها وأركانها، فإنه يحكم على هذه الصلاة بالصحة، وإن كان كذلك آثمًا بغصبه، فالجهة مُنفكّة.

فَهُنا لما قال الله سُبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ﴾.. ما المراد بالخشية هنا؟

لو خاف إنسان من اللصوص، أو خاف مثلًا من صوت الرعد، أو خاف مثًلا من سرعة السيارة، أو خاف مثلًا من الكهرباء إذا أراد مثلًا أن يُزيلَ شيئًا، (فيشًا) أو ما شابه ذلك، هل هو داخل في عموم هذا الآية؟

– أخ: لا..

– الشيخ: إذن ما المراد بالخشية هنا؟

– أخ: التوحيد.. توحيد الله سبحانه وتعالى، وعبادته.

– الشيخ: نعم.. خشية العبادة..

وصورتها: التي تدفع الإنسان إلى فعل الواجب امتثالًا لأمر الله وخشيةً من عقابه، واجتناب المحرَّم طاعةً لله وخوفًا من عقابه.

هذه الخشية تكون على وجه التعبُّد، فكيف تكون الخشية شركيّة أو كُفريّة؟

هاه..؟

– أخ: يخاف من المخلوق دون الخالق.

– الشيخ: مثال؟ ها؟

– أخ: إذا دخل إلى مكان مقامات أو قبور أو سحر وشعوذة يخاف أكثر من خوفه من الله عز وجل.

– الشيخ: يعني قيل له لو لم تُقرِّب إلى هذا الولي، أو تصرف هذه العبادة من ذبحٍ أو استغاثةٍ لهذا المخلوق من دون الله عز وجل لَمَسَّكَ هذا بالضُر، فأنت خشيت أن يمسّكَ الضُر إن لم تُباشر بصرف العبادة إليه، فهذه صورة من صور الشرك.

هاه..؟ من يأتي بمثالٍ آخر؟

سَمْ..

– أخ: إذا طُلِبَ منه أن يحلف بالله، يحلف بالله كاذبًا، طُلب منه يحلف بالولي فلان أو بالسيد فلان، فلا يحلف.. يخاف..!

– الشيخ: خوفًا من ماذا؟

– الأخ: يخاف منه..

– الشيخ: يخاف أن يطاله شيء من هذا الولي أو ما شابه ذلك..

الصور على ذلك والأمثلة كثيرة..

– أخ: كل ما لا يقدر عليه إلا الله ويخاف منه يكون شرك.

– الشيخ: إي نعم، لا شك..

لكن هناك فرق بين الخوف الطبعي أو الطبيعي، والخوف الذي يكون على وجه التعبُّد، وقد دلَّ الكتاب على إباحة الخوف الطبعي.. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]؛ لأن الإنسان قد ينتابه شيء من الخوف الطبيعي، قد يُحاصر المرء من أعدائه فينتابه شيء من الخوف، هذا شيء طبيعي جُبِلَت

عليه النُّفوس، أما أن يخاف الإنسان الخوف الذي يكون على وجه التَّعبُّد فلا شك أن هذا لا يُصرف إلا لله عز وجل، والخوف من الأعمال القلبية التي لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل.

﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾..

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "فعسى" في كتاب الله عز وجل واجبة، أي: أن من كان هذا وصفه، وهذا حاله فهو أحرى بأن يكون من المهتدين الذين هُدوا إلى صراط الله المستقيم، هُدوا لتحقيق هذه الأوصاف التي بناءً عليها يكونوا أهلًا لعمارة مساجد الله.

إذن قبل أن ننتقل إلى الآية الأخرى، هل ثمّة سؤال وإشكال فيما تقدّم؟

- سائل: هل نستطيع أن نقول عن هذه الآية أنها اشتملت على الإيمان والإسلام والإحسان؟

- الشيخ: نعم.. أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكُن تراه فإنه يراك، لا شكّ أن هذه درجة عالية، ولكن السياق حينما ذكرناه قبل قليل قُلنا هذا دليل على أن الإيمان يُطلق ويُراد به الأعمال الظاهرة والباطنة إذا لم يقترِن به لفظ الإسلام، وقد يُطلق الإسلام ولم يقترِن به لفظ الإيمان فيدل على كلا المعنيين: الأعمال الظاهرة والباطنة، والسياق يشهد لذلك.. حيث أن من الأعمال التي وُصِفَ بها عُمّار مساجد الله أعمالٌ ظاهرة وأعمالٌ باطنة..

نجد دائمًا تُذكر الصلاة والزكاة، وتُجعل كَصِفَة بارزة للإيمان، بل علامة للدخول فيه.. ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].. **لماذا يأتي ذكر الصلاة والزكاة كثيرًا بمثل هذا السياق؟**

نعم شيخ..

- الأخ: لأن إطلاق العام على الخاص، تسمية الشيء بأبرز ما فيه ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج: ٤١]، كناية على إقامة الدين كله.

- الشيخ: أحسنت، نعم..

وكذلك لا شك بِعَظَم قدر الصلاة ولِعَظَمِ قدر الزكاة، لذلك نجد أن الصلاة عبادة امتحن الله سُبحانه وتعالى بها العباد، فأخفق في ذلك المنافقون، فَثَقُلَت عليهم الصلاة.. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢]، ((أثقلُ الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر))؛ لأن هذين الوقتين يخلد الناس في غالب أمرهم إلى الراحة فيهما، فَعَظُمَ الامتحان على الخلق بهذه الشعيرة العظيمة، ولا يُداومُ على الحفاظ عليها إلا من وقر الإيمان في قلبه، وَلِعِظَمِ شأن هذه العبادة أو هذه العبادات عند الله عز وجل، وقل بمثل ذلك في الزكاة، فإن الله سبحانه وتعالى امتحن الخلائق بأعظم محبوب لهم في هذه الدنيا.. ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].. ما هو الخير هنا؟ المال، وكذلك يقول الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، أي: حُبًّا شديدا.

فلما جَبَلَ الله سبحانه وتعالى قلوب العباد على حُبِّ المال والتعلُّقِ به، امتحن الله العباد بهذا المال، فأوجب عليهم في أموالهم إذا توفرت فيها شروط مخصوصة أن يُخرجوا القدر الواجب منها، ألا وهي: الزكاة.

لذلك تجد أن بعض التجار حينما يُطلب منه أن يُخرج الزكاة الواجبة في ماله تجد أن لونه يتغير، وتثقل نفسه عن أداء هذا القدر الواجب، وهذا دليل على ضعف الإيمان في القلوب.

ومن الناس من يُبادر ويُسارع لإخراج القدر الواجب في ماله فهذا دليل على أن الإيمان قد وقرَ في قلبه.

ولعل الإخوة الذين يُباشرون الجباية يرون ذلك ويُدركونه إدراكًا بيّنًا واضحًا، والناس مُتفاوتون في الإيمان، فتجد أن البعض تجود نفسه طيّبةً بهذا المال، بل ويبذلُ زيادةً على ذلك شيئًا مُستحبًّا زيادةً على الواجب.

ولا شك أن الزكاة جعلها الله سبحانه وتعالى طُهرةً للمال، ووقاية له من الآفات..

إذن دائمًا تجد التنصيص على الصلاة والزكاة في مثل هذه السياقات، وهذا دليل على عِظَم شأن هاتين العبادتين، وكذلك دليل على أن أهل الإيمان لا يكتملُ وصفُ الإيمان لهم حتى يكونوا من أهل الصلاة ومن أهل الزكاة إن كانوا من أهلها.

ولذلك تعلمون أن الصدّيق رضي الله عنه حينما ارتدت قبائل العرب بعد موته عليه الصلاة والسلام، كان أول امتحان امتُحِنَ به العباد كان بهذه الشعيرة، فَارتدَّ من ارتدَّ من العرب، فانبرى لهم الصدّيق رضي الله عنه فحمى الله به الدين.

سَمْ يا شيخ..

– الأخ: الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.. طيب في الآية هنا: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وهذا من الإيمان، تكملة الآية الكريمة ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ إقامة الصلاة من الإسلام..

– الشيخ: طيب الآن نحن قلنا إذا اجتمعا افترقا.. ما معنى افترقا؟

أي: دل الإيمان على الأعمال الباطنة، والإسلام على الأعمال الظاهرة، أما إذا افترقا –يعني جاء الإيمان على حِدَة–، فإنه يشمل المعنيين.. والآية تدل على ماذا؟

– إخوة: على المعنيين.

– الأخ: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ إقام الصلاة من الأعمال الظاهرة، والإيمان من الأعمال الباطنة..

– الشيخ: طيب..؟

– الأخ: يعني ما افترقا.. اجتمعا ما افترقا..

– الشيخ: الآن.. الآن الإيمان ما دل على الأعمال الظاهرة والباطنة في هذا السياق؟

هاه..؟ دل أو ما دل؟

– الأخ: دل..

– الشيخ: طيب هذا هو المعنى.. إذا اجتمعا افترقا، فالآن هنا افترقا أو اجتمعا؟

افترقا اجتمعا، أي اجتمعا للدلالة على هذين المعنيين.. واضح؟

طيّب..

﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.. لا شك أن الهداية إما أن تكون هداية تامة كاملة، أو دون ذلك، وكما أن الناس يتفاوتون في الإيمان فإنهم يتفاوتون في الهداية، فمن تمّ إيمانه تمّت هدايتُه، ومن قَصُرَ إيمانهُ عن التَّمامِ قَصُرَت هدايتُه عن التَّمام، وهكذا..

ثم بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

روى مُسلم في صحيحه من حديث النُّعمان بن بشير ﵁ أنه قال: قام نفرٌ من الصحابة يوم الجُمُعَةِ عند منبر رسول الله ﷺ، فترافعت الأصوات، حتى قال أحدهم: أنه لا يضرُّ ألَّا أعمل بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال الآخر: أن أعْمُرَ المسجد الحرام، ثم اعترض الثالث فقال: لا، بل الجهاد في سبيل الله أفضل مما قُلتم، ثم بعد ذلك نَهَرَهُم عُمَر ﵁ وقال لهم: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله، ولكن قال: حتى أستفتي رسول الله ﷺ، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية.

وكذلك جاء في سببٍ آخر: أن المشركين كانوا يتباهون بهذه الأعمال، بسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، حتى أنهم كانوا يأتون عند اليهود ويسألونهم: أي الأعمال أفضل؟ أهي السقاية والعمارة؟ أم من آمن بالنبي ﷺ؟ فكانوا يقولون على وجه التنقص: بل عملكم أفضل فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية تبيانًا وإيضاحًا بعلو منزلة هذه الطاعة ألا وهي الجهاد في سبيل الله.

﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ يا من اختصمتم في أي الأعمال أفضل، فجاء البيان الإلهي والفصل الربّاني بأنَّ أفضل الأعمال وأجلّ القُرُبات إلى الله عز وجل هي الجهاد في سبيل الله.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ **هنا وقفة:**

تأمل بالسياق: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ هذا عمل، ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هذا عمل، ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ هنا عمل أو عامل؟ رجل قام بهذا العمل..؟

هنا يتحدث عن أناسٍ آمنوا، هنا ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ عمل، ﴿عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عمل، ﴿كَمَنْ آمَنَ﴾ الآن اتجه التشبيه أو القياس إلى أشخاص آمنوا بالله عز وجل..

يقول أهل التفسير أن هناك محذوف مُقدّر معناه: (أجعلتم أصحاب السقاية)، الموازنة بين الأشخاص الآن، ويُضاف على ذلك كذلك الأعمال.. (أجعلتم أصحاب السقاية وأصحاب العمارة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله).

إذن، هذه الطاعات وأصحابها لا يمكن أن يُساووا بأصحاب الإيمان الخالص الذين باشروا هذه الطاعة ألا وهي الجهاد في سبيل الله.

- سائل: المشركين الّي كانوا سابقًا يسقوا الحجيج و (...)

- الشيخ: كذلك هذا معنى آخر، لأنه على ما جاء في مسلم، حديث النعمان، هنا يشهد للخلاف الذي وقع بين الصحابة في التفضيل، وعلى المعنى الآخر في سبب النزول أنه: لا يُساوى من آمن بالله واليوم الآخر بمن لم يُؤمن بالله واليوم الآخر وقام بهذه الأعمال وإن كانت جليلة القدر عند الله عز وجل، ولكنها لا تنفع فاعلها إذا لم يكُن مُؤمنًا.

هو لا شك أن سقاية الحجيج قُربة من أعظم القُربات، وهي طاعة جليلة وعظيمة القدر عند الله عز وجل، وهي وإن كانت على هذا القدر، فإنها لا تبلغ تلك الطاعة إذا اقترنت بالإيمان الخالص والصدق واليقين بموعود الله عز وجل.

﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: دائمًا نجد أن الإيمان هو وصف لازم لمن جاهد في سبيل الله، استعرِض أغلب الآيات التي وردت في الجهاد.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ...﴾ [الصف: ١٠]، انظر في الآية الأخرى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الصف: ١١]، تجد دائمًا اقتران الإيمان بالجهاد في سبيل الله؛ لأن من آمن به سبحانه وتعالى سَهُلَ عليه أن يجود بأغلى ما يملك قُربَة لله عز وجل، وإن من ضعُفَ إيمانه حِيلَ بينه وبين هذه الطاعة، ولا يمكن لمؤمن قد رسخ الإيمان في قلبه أن يرضى أن يكون مع الخوالف، ولا يمكن لمؤمن قد عَظُمَ الإيمان في قلبه أن يرضى أن يكون مع الخوالف، بل إن إيمانه يحدوه، ويدفعه إلى ألّا يكون مع القاعدين، بل

يكون من المبادرين إلى هذه الطاعة وإلى هذه القُربة، حتى وإن عظُمَت الصّوارف وَكَثُرَت في حقه؛ فإنه لا يلتفت إليها ولا يُلقي لها بالًا.

والشواهد على ذلك كثيرة جدًا، فإن صحابة رسول الله ﷺ قد ضربوا لنا أروع الأمثال في ذلك، فكانوا على قدرٍ عظيم وإيمانٍ راسخٍ رصين، حتى سطّروا لنا أروع الأمثال والبطولات.

﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لا شك أن الجهاد الذي حقيقته بذلُ الوسْعِ واستفراغ الطاقة في قتال أعداء الله نُصرةً لدين الله عز وجل؛ لا يكون مقبولًا إلا بالإخلاص لله عز وجل.

﴿وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي مُخلصًا لله عز وجل، حينما يُسأل النبي ﷺ عن أُناسٍ يُقاتلون حميّةً، ويُقاتلون عصبيّة.. أي ذلك في سبيل الله؟ فماذا قال؟ ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو فسبيل الله))، ولا يمكن أن تُقبلَ الطاعة إلا بإخلاص وتجرّدٍ لله عز وجل، برجاء ثوابه والقبول منه سبحانه وتعالى، وأن يكون الباعث من إنشاء هذه الطاعة وجه الله والدار الآخرة.

﴿وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾: لا شك أن هذه الآية تدل دلالةً بينة على أن الجهاد في سبيل الله كما جاء وصفه في الترمذي من حديث معاذ: ((ذِرْوَةُ سنام هذا الدين)) فهو في قمة الطاعات وفي قمة القُرُبات؛ لأنه يجود صاحبه فيه بأغلى ما يملك في هذه الدنيا: النفس والمال والولد بل والزوجة، فإنك لن تكون مُجاهدًا حتى تُضحّي بهذه الأربع، لن تكون مُجاهدًا حتى تُضحّي بنفسك، لن تكون مُجاهدًا حتى تُضحّي بمالك، لن تكون مُجاهدًا حتى تُضحّي بولدك، لن تكون مُجاهدًا حتى تُضحّي بزوجتك.

ولا يمكن أن يكون هناك مُجاهد بحق مُتعلّق بهذه الأمور الأربعة، فإن تعلّق بها صرفته عن المقصود، وصرفته عن التقرّب إلى الربِّ المعبود بهذه الطاعة.

وحقيقةً نسأل الله عز وجل أن يربط على قلوبنا وأن يُثبِّتَ أقدامنا عند اللقاء، كثيرٌ هم الذين يصفون أنفسهم بأنهم مجاهدون، ومن السهل على المرء أن ينعت نفسه بذلك، ولكن حينما يُوضع على المحك يظهر عند ذلك صدق الصادقين وكذب الكذابين.

الأدعياء يتساقطون حينما يُستنفرون، الأدعياء يتساقطون حينا يُوضعون في الصف الأول، الكل يعتذر، بل بعضهم يقول: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، وسمعنا وللأسف الشديد من يقول في بعض الاستنفارات مثل هذه العبارات.. ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا﴾.. تصدق عليهم هذه الأوصاف، بل يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]..

فإذن، لا يمكن أن يستقيم جهاد المرء حتى يجاهد بهذه الأمور الأربعة، بعد إخلاصه لله عز وجل لا بد أن يُرخِصَ النفس فيبذلها، ويُرخِصَ المال فيبذُلُه، ويرخص الولد والزوجة، فتقوى نفسه على تركهما طاعةً لله عز وجل؛ لأن الإنسان إذا خرج بطريق الجهاد قعد الشيطان بأطرقه يُذكِّرُهُ بهذه الأمور، يُذكّرُهُ بالزوجة أنك إذا قُتِلت ستجد زوجًا غيرك، وأن المال إذا قُتِلت سيتقاسمه ورثتُك، وأن الولد إذا قُتِلت سيعيشون بدون من يربيهم، وهكذا.. يبُثُّ هذه الأراجيف في نفسك ليصرفك عن هذه الطاعة التي لا تُساويها طاعة.

فنسأل الله العلي القدير أن يَمُنَّ علينا وعليكم بواسع فضله وكريم إحسانه سبحانه وتعالى.

﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾: لا يستوي من خرج مُهاجرًا في سبيل الله، مُنافحًا عن هذا الدين، مُرخصًا هذه النفس لِرَبِّ العالمين بمن حَصَرَ طاعاته وعباداته بهذه الأعمال التي قد لا يُفتَنُ فيها المرء بمثل ما يُفتَنُ به المجاهد؛ لذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].. نبلو ما تُخفيه هذه النفوس في سويداء القلوب، فيظهر بهذا الابتلاء المكنون وما تُخفيه النفوس.. ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾: انظر، هذا التفضيل وهذا الميزان ميزانٌ ربَّاني، لا يستوون عند الله وإن كان هذا الميزان قد يكون باعتبار آخر عند البشر قد يستوون، كما حصل في سبب نزول هذه الآية، فإن البعض قد يرى أن السقاية أعظم، والبعض يرى أن العمارة أعظم، فهذا ميزانٌ لا اعتبار به إذا قُوبِلَ بالميزان الرباني، فإن كل ميزانٍ يُعارَضُ به الميزان الإلهي فهو لا اعتبار به، وهو ساقطٌ ولا يُعتدُّ بِهِ.

﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: أن الذين حُرِمُوا من أوصاف الإيمان والبرّ والتُّقى والإحسان والإيمان باليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، فإنهم يُحرمون من الهداية إلى مثل هذه القُرُبات ومثل هذه الطاعات التي هُدِي إليها أهلُ الإيمان؛ فإن من لا خلاق له لا يستحق أن يُهدى لهذه الطاعة.

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: لا يهدي الذين ظلموا أنفسهم بكل أنواع الظلم، بالظلم الأصغر وبالظلم الأكبر من باب أولى وأحرى؛ فإن الذي ظلم نفسه وصرفته ذنوبه عن طاعة ربِّهِ، فإنه إن بقى أسيرًا لمعاصيه وخطاياه سيُحرَمُ من الهداية لهذه الطاعة.

وكم هم الذين كبّلتهُم ذنوبهم وخطاياهم عن هذه الطاعة، يرى أن إخوانه زُرافاتٍ ووحْدانا يهُبُّونَ لِنُصرَةِ هذا الدين وهو إذا تفقّدَ نفسه وجد أنه ما زال مع المتخلّفينَ القاعدين، لم يرمِ في سبيل الله رميةً قط، لم يُبتلَ في الله قط، لم يُؤذَ في الله قط، ثم بعد ذلك يُريد أن يكونَ من أهلِ هذه المنزلة العالية التي لا تُساويها عند الله منزلة!

ولله درّ ابن المبارك حينما أنشد تلك الأبيات لعابد الحرمين:

يا عـابِـدَ الحـرمـينَ لـو أبصـرتـنـا ... لَعَـلِـمْـتَ أنَّـكَ بالعـبـادةِ تـلـعـبُ

من كـانَ يخضِـبُ خَـدَّهُ بِـدُمُوعِـهِ ... فَـنُـحُـورنَا بِـدِمـائِنَـا تـتَـخَضَّـبُ

فإن هذه الطاعات وإن كان الإنسان يلزمُ المسجد الحرام مُعتكِفًا فيه، فإن من اغبرَّت قدماهُ في سبيل الله طاعته أعظم عند الله من ذلك الذي لزم البيت الحرام.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

بعدما بيّن الله سبحانه وتعالى أن هناك ميزانٌ بين أهل الجهاد والإيمان، وبين من تقاعسوا وكانوا دون هذه الرتبة بمراحل، أنهم لا يستوون عند الله حتى وإن أتوا بعباداتٍ عظيمة.

ثم بعد ذلك يذكر الله سبحانه وتعالى أن أهل الإيمان في أنفسهم ليسوا على درجة واحدة، فهم يتفاوتون في الدرجة، فمنهم من يبلغ كمال الإيمان، ومنهم من يكون دون ذلك ومنهم من يُجاهد..

لذلك أذكر أني بالنظر إلى عموم أقوال أهل العلم، وبالنظر إلى الإقبال والإدبار في المعارك، فإني ذكرت تقسيمًا اجتهاديًا في توصيف المرء المجاهد بين الإقبال والإدبار، فإن للإقبال والإدبار صُورًا منها ما هو حقيقي، ومنها ما هو معنوي.

فقد يكون الإنسان مُقبلًا وفي نفس الآن مُدبرًا، مثال ذلك: يُقبل الإنسان مُنغمسًا في عَدِّوهِ وما زالت نفسه مُتعلّقة بالدنيا، يطمح أن يعود ليتنعم بزهرتها؛ فهو مُقبلٌ إقبالًا حِسيًّا مُدبرًا إدبارًا معنويًّا.

وهناك من يأتي بالإقبال بنوعيه، يُقبِلُ حِسًّا ومعنى؛ فهو مُقبِلٌ بِنَفسهِ حِسًّا ومعنى، أي: بجسده مُنغمِسًا في عَدوِّهِ ونفسه لا تتطلّعُ للدُّنيا ولا للرجوع إليها، فهذه أعلى درجات الإقبال، والتي قبلها دونها.

– سائل: عليه شيء يا شيخ في الصورة الأولى؟

– الشيخ: لا، لا شك أنه دونَ الرتبة الأولى، هو ما قصد مُحرّمًا يعني ما زال مُتعلّقًا بالزوجة، بالمال، بالولد..

– الأخ: نظُنّه بأنه يُجاهد من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله، ولكن...

– الشيخ: لا شك، نحن نتحدث عن الدرجة، هل يستوي من أقبل بجسده وقلبه بمن أقبل بجسده وأدبر قلبه؟ رجل ذهب حمل روحه على راحته، يطلب القتل أو الموت مظانه لا يريد الرجعة، فارق أهله مُودّعًا لهم؛ اشتاق إلى لقاء الله عز وجل، ورجل أقبل ولكنه يقول: يا رب والله ما... والله إن عندي قريشات باقي فلوس شوي هه... ودّي أصرفها... ويقلّك والله يا رب شهرين توني متزوج.. خل نكملها سنة.. لا شك هذا ما زال مُتعلّق، ما زال فيه إدبار..

– سائل: إذا قُتِل.. شهيدًا؟

– الشيخ: نعم، نسأل الله.. إن أخلص لله عز وجل لا شك، لكن هذا في الدرجة يا إخوة.

يعني لا شك أن الذي أقبل حِسًّا ومعنى أفضل وأعظم درجة، ولذلك كما جاء في الصحيحين: ((أعدَّ الله للمُجاهد في سبيل الله مائة درجة، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض)).

إذن عرفنا القسم الأول في الإقبال بنوعيه.

وكذلك الإدبار له نوعان: إدبار حِسّي، وإدبار معنوي..

- أخ: الذي يتحيز..

- الشيخ: أحسنت..

إلا مُتحرّفًا لقتالٍ أو مُتحيّزًا إلى فئة، هو بأرض المعركة إما: كارًّا، أو فارًّا، أو مُتحيّزًا، حقيقته الحسية: إدبار، ولكن قلبه مُقبل يُريد أن يُقتل في سبيل الله لكن أمر الأمير بالانسحاب والالتفاف، أو بالانسحاب التكتيكي.

الصورة الأخرى: قال الأمير انسحاب.. قال: الحمد لله.. الله يبيّض وجه الأمير.. عزَّ الله أنه..

فلا شك أن هذا يعني.. فبدأت الهمة ترتفع، قبل بالإقبال ضعيف يالله يمشي.. فلما قالوا انسحاب، ما شاء الله محد يقف أمامه.. واضحة الصورة؟

هل بينهما فرق؟ لا شك.. لكن هنا لا شك، ما دام أنه ثابت ورجع، ولم يرجع إلا لأمر فهذا لا يُمكن أن يُقال عنه أنه تولى من الزحف، لأن نحن لا نتعامل مع الناس إلا بالظاهر، وهذا أمر قلبي يزيد برتبة العبد عند ربّه سبحانه وتعالى..

إذن، بعد هذا السياق القرآني بدأ المولى سبحانه وتعالى يذكر منازل أهل الإيمان وتفاوتهم بالدرجات..

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ انظر الآن.. ﴿آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ لا يمكن أن تكون هناك هجرة بالمعنى الشرعي الممدوح شرعًا إلا بإيمانٍ يدفع صاحبه للهجرة.

كم هم الذين تعرفونهم تدعونهم إلى الهجرة إلى دار الإسلام، فيقول لك: بيتي، داري، مالي.. تجد أن هذا الرجل لا محالة عنده شيء من الضعف، ما دام أنه توفر فيه شرط القُدرة، وأنه كذلك لا يأمن على نفسه من الفتنة –وهذا هو الغالب–، وإن كانت هناك صورة وقسمة ذكر أهل العلم في حال من يُقيم في دار الكفر بالنسبة للهجرة ووجوبها –وإن كانت مُمتنِعَة في الواقع الحالي، أو يتعذّر وجودها– أن يوجد شخص قادر على الهجرة ولكنه يأمن على نفسه من الفتنة في الدين، هذه حقيقة يصعب وجودها، وإن كانت نوع ذكره أو قسم ذكره أهل العلم..

الآن هناك قوانين وأنظمة يُلزم فيها من كان تحت سلطان الكافرين، إضافة إلى ذلك لا تُمكّن من إظهار شعائر الدين، ولو كنت قادرًا على ذلك لم يتركك أهل الكفر والطغيان على حالك، فتجد أن الخُلاصة والنهاية أنه قد يتعذر وجود مثل هذا القسم، أو قد يكون ضيّقًا في اعتباراتٍ أو في أماكن محدودة.

فنجد أن الإيمان دائمًا يحذو بصاحبه إلى الهجرة امتثالًا لطاعة الله.. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾[البقرة: ٢١٨]، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ إما هاجروا امتثالًا لأمر الله عز وجل، أو أُخرِجوا قسرًا بعد إكراه أعدائهم.. هذه أوصاف، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ لا بد من الأذى، لا يمكن أن تُنزَلَ منزلة المهاجر التي جعل الله سبحانه وتعالى له قدرًا خاصًا بالشرع حتى تُبتلى ويلحقك شيئًا من الأذى.

﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾: فمن هاجر هو بين هذين الأمرين، فهو مُقاتلٌ لأعداء الله وأعداؤه يتربّصون به فيقتلونه، فالنتيجة والجزاء: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

إذن، ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله﴾..

إذن هناك أوصاف، هناك من جمع بين الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال وهو أعظم درجة من الذي آمن وهاجر وجاهد بنفسه دون ماله، أو هاجر أو جاهد بماله دون نفسه، وهكذا..

نعم..

هنا بيّن الله سبحانه وتعالى أن من توفرت فيه هذه الأوصاف مُكتملةً هو أعظم درجة من غيره، ممن جاء ببعض هذه الأوصاف ولم يأتِ بها مُجتمعة.

ولا شك أن هذا يدل على تفاضل أهل الإيمان بالإيمان؛ فإنهم ليسوا على درجة واحدة، بل إن أهل الإيمان يتفاوتون في إيمانهم، ولذلك جاء الحث على المسارعةِ والمسابقة والتنافس.. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، و ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الحديد: ٢١]، وما شابه ذلك من السياقات والنصوص الشرعية.

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: من تضافرت فيه هذه الأوصاف وتحققت، فهو الذي فاز فوزًا عظيما، والفوز فوزان: فوزٌ في الدنيا، وكذلك فوزٌ في الآخرة، وإننا نرجو الله سبحانه وتعالى أن يجمع لنا بين الفوزين، فأن نفوز بتوفيق الله عز وجل في هذه الدنيا بِطَاعتِهِ وَرِضوانِهِ والصِّدق في الطاعة والتقرّب بين يديه، وكذلك الفوز في الآخرة بِالرَّوحِ والرَّيحَان، والرِّضَا والغُفران..

وقبل الختام، فاتتني مسألة أن أذكرها عند قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ..﴾ **هل يجوز أن يُنتفع بالكفار في بناء المساجد؟**

عندنا شركة مقاولات، جزء من عمالتها كفار مشركون، هل يجوز أن ننتفع بهؤلاء أو أن نستخدمهم أُجراء لبناء المساجد؟ ها..؟ أفتونا مأجورين..

– الأخ: أُجراء، عُمّال يعني يتقاضون أُجرة وليس ينفقون أموالهم..

– الشيخ: يعني لا يُنفقون أموالهم، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيّبا، ولا حرج من استئجارهم في عمارة المساجد..

هاه..؟

– أخ: إذا كان يوجد غيرهم مسلمين مؤمنين...

– الشيخ: يعني يُقال لا يُصار إلى ذلك ابتداءً، وإنما في حال تعذّر.. مثال: عندنا مسجد يحتاج إلى مهندس من نوع مُعيّن نظرًا لطبيعة الأرض التي سيُبنى فيها هذا المسجد، أو بُني هذا المسجد وبقي عندنا أمر قد يتعذّر أن يوجد شخص مُختص بهذا الأمر بين المسلمين..

لا شك إذا ضاقَ الأمر اتّسع، كما تنص على ذلك القاعدة الأصوليّة، وإذا اتّسع ضاق..

طبعًا هو حقيقة قولان لأهل العلم: منهم من يقول لا يجوز الانتفاع بالكفار في بناء المساجد وما شابه ذلك؛ لأن نصَّ الآية يدل على ذلك ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾..

وهذه الصورة التي نحن في صدد الحديث عنها من العمارة الحسيّة التي تنص عليها هذه الآية أصالةً وابتداءً.

وهناك من يقول: أنه لا حرج من ذلك؛ لأن المراد: ألّا يكون المشركون ولاةً على هذه البيوت، يقومون عليها وهم الذين يتولّون بناءها وصيانتها، يعني يكونون مثلًا مسؤولين عن هذه المساجد، هو الذي يتولّى هذا المسجد، ويأمر وينهى فيه، وكل من دونه تحت أمره وما شابه ذلك.. قالوا أن هذا هو المراد بهذه الآية، والصورة المسؤول عنها هي دون ذلك.

وهناك قول ثالث: أنه لا يُصار إلى الانتفاع بالكافر في بناء المسجد إلا إذا كان في عملٍ خاص، لا يوجد نظيره في هذا العمل، وكذلك إذا تعذّر علينا إيجاد العدد الكافي من المسلمين للقيام بذلك، وما شابه ذلك من الاحتمالات.

إذن، لا يُصار إلى الاستفادة بهم في البناء إلا إذا تعذّر علينا بشكلٍ كُلّي أو جُزئي.

يعني لا يوجد عندنا بديل أبدًا إلا هذا الكتابي مثلًا.. اليهودي أو النصراني.. يُصار إليه أو لا يُصار؟ بناءً على هذا القول نعم، لكن إذا وُجِدَ من المسلمين ما يُمكن الاستغناء به عن هؤلاء، كان لزامًا علينا ألَّا نستخدمهم في مثل هذا الأعمال.

سَمْ يا شيخ..

– الأخ: يعني إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر؟

– الشيخ: يعني ممكن، احتمال يعني.. بعيد نوعًا ما، لأن هو الآن يأتي أجير، ما وجه النُّصرة الآن؟

– أخ: طيب شيخ بس ممكن يعني مثلًا تجهيزات ألا تدخل في بناء عمارة المسجد؟

– الشيخ: لا شك...

– الأخ: يعني مثلًا في القواطع هذول يعني ما في ولا بلد إسلامي قادر على البناء مثلًا، أو يُصلح هكذا أشياء يعني..

– الشيخ: نعم، هَبْ أن المسجد وُضِعَ فيه جهاز من نوع خاص، وهذا الجهاز مثلًا يتعذّر وجود شخص مُختص فيه إلا عدد قليل، مثلًا هذا العدد القليل لا يوجد بينهم مسلم، كلهم مثلًا أهل ملة، فهل يُستفاد؟

ثم بعد ذلك تأتي عندنا مسألة إن شاء الله سَتمُر علينا عند قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].. من أهل العلم من عمّمَ القول في ذلك، فقال: أن منعهم من دخول المساجد شاملٌ للمسجد الحرام وغيره، ومنهم خصّ ذلك بالمسجد الحرام وهو الصحيح والله تعالى أعلى وأعلم، ودليل ذلك أن النبي ﷺ ربط ثُمامة في داخل مسجده ﵊، وكان النبي ﷺ يستقبل الوفود في بعض الأحايين في مسجده ﵊، وهذا يدل على أنه إذا وُجِدَت المصلحة الراجحة من دخولهم كتأليفهم للإسلام أو ما شابه ذلك، كأن يكون هذا فيه يعني إظهار للدين، وترغيبًا لهم في الدخول فيه، فإنه يجوز من هذا الوجه.

– سائل: إذا كانت عمارة المساجد نُصرة للدين، فهل يجوز للمسلم مثلًا أن يبني كنائس؟

– الشيخ: كيف؟ كيف؟

– الأخ: إذا كانت المساجد نُصرة للدين، فهل يجوز للمسلم أن يبني الكنائس؟

– الشيخ: يعني أنت حصرت بناء الكنائس في النصرة فقط، لكن أين إقرار الكفر، والرِّضا به، يعني لا شك أن هذه أوصاف، قد تكون أوصاف مُؤثّرة لكن ليس هي التي يُناط بها الحكم أصالةً وإنما تكون أوصاف إما أن تقول: أساسية، أو أنها أوصاف كذلك ثانوية.

– الأخ: النبي ﷺ استأجر عبدالله بن أريقط دليلا للهجرة وكان كافرًا..

– الشيخ: طيب أنت تقول يعني أن هذا من النُّصرة يعني كيف؟ أنت تقول إن الله يُؤيّد هذا الدين بأقوامٍ لا خلاق لهم، تريد أن تستشهد مثلًا بهذا الخبر على أن هذا دليل على ما تقول؟

كيف؟

– الأخ: قلت لك هل يدخل في هذا الباب أم لا؟

– الشيخ: نحن نقول لك الآن إذا صار الكافر هذا بناؤه لأجل الإضرار يُهدم، فكيف تستدل بهذا الدليل؟!

في بعض الأحيان قد يأتي نعم، فيُبنى هذا المسجد لأجل الإضرار بالإسلام وأهله.

– سائل: شيخ عندما دخل رسول الله ﷺ إلى مكة فاتحًا دخل المسجد الحرام، اكتفى بأنه ألغى مظاهر الشرك والتنديد مع العلم أنه بني المسجد الحرام آخر مرة بأيدي المشركين وبأموال المشركين، وما أحدث فيه هذا التغيير، مع أنهم غيّروا من شكله وجعلوا له درجات... واكتفى بأنه قال.. حديث السيدة عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بكفر..

– الشيخ: نعم، لكن أصل البناء كان على قواعد إبراهيم عليه السلام..

– الأخ: يا شيخ مخالف لقواعد إبراهيم..

– الشيخ: نعم هو لما قصرت النفقة ثم بعد ذلك ابن الزبير لما أعاد كذلك بناءه، وحصل هناك يعني خلاف بين السلف في مثل هذا..

هو لا شك نعم.. إذا كان أصل المسجد بُني على أساس التقوى كما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم الخليل، ثم بعد ذلك طرأ عليه مثل هذه الأمور من زيادة وترميم –كما هو الحال الآن–، قل مثل ذلك في المسجد النبوي، فإن هذا لا شك أنه لا يُلحق بمسجد ضرار؛ لأن أساسه وقواعده بُنيت من أول يوم على الإضرار بالإسلام وأهله.

– هنا يقول: هل دعاء ختم القرآن وارد في السنة؟

والله تعالى أعلى وأعلم لم يرِد في ذلك مما أعلم نصٌ صحيح صريح يدل على ذلك، ولكن يعني.. يُروى عن أنس ﷺ أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهل بيته، ولكنه خارج الصلاة ليس في داخل الصلاة، جمع أهل بيته و.. لا شك أن ختم القرآن طاعة من الطاعات، ومن المواضع التي يُستجاب فيها الدعاء أن يكون بعد الطاعات والعبادات التي من جملتها ختم القرآن، ولكن لم يرِد في ذلك دعاء مُحدّد أو صفة محددة، وكذلك لم يثبت في ذلك في أثناء الصلاة، وإنما ورد عن بعض الصحابة كأنس خارج الصلاة، والله أعلم.

– يقول: هل يُشترط فقط الأوصاف الأربعة كاملة؟

هذا الذي يظهر والله تعالى أعلى وأعلم، لأننا إذا نظرنا إلى المسجد الذي هدمه النبي ﷺ، ونجعل الأصل في هدم مسجد ضرار هو فعله ﷺ مع ذلك المسجد، فإن المسجد توفرت فيه الأوصاف الأربعة.

– عندنا آخر سؤال..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قلت أن الجهاد أعظم الأمور، فلماذا لا تجعلون للأئمة والخطباء والدعويين نصيب من الجهاد في سبيل الله؟ (...)

الله المستعان، الله يرحمنا برحمته.. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٣]، الإنسان إذا اتقى الله عز وجل تهيّأت له إن شاء الله يعني أسباب التوفيق والسداد، وأعرف كثير من الإخوة حاولوا مرة ومرتين وثلاث حتى هيّأ الله سبحانه وتعالى لهم أسباب ذلك، وأسأل الله العلي القدير أن يرزقنا وإياكم ما يحب ويرضى..

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



تم بحمد الله تعالى..

لا تنسونا من صالح الدعاء.

الناشر:



الاثنين، ٥ ذو القعدة ١٤٤٥ هـ (١٣ مايو ٢٠٢٤ م)